المكيدة

بقلم

مريم مَحْرِز

تتسول دومًا على قارعة الطريق وفي البيوت.. تأكل من الزبالة ومن بقايا الأطعمة.. وتعيش على بعض ما يمنحها إياه أصحاب القلوب الرحيمة.. من منا لا يعرف القطط؟ تلك المخلوقات التعيسة التي تُعاني البرد والجوع والعطش.. تلك التي يختلط زفير الرياح بموائها.. وهدير الأمطار بأناتها.

جلست جميلة تفكر من زجاج نافذتها في القصة التي سمعتها ليلة أمس من جدها حول بيت مهجور قرب بيتهم.. حكى لها أنه قد رُويت حول ذلك البيت قصص عديدة.. كثيرة منها لا يمكن اعتبارها أكثر من خرافات.. والبعض منها مبنيٌّ على عدة حقائق ومشاهدات عينية.. روى لها جدها أن ذلك البيت كان يومًا مليئا بالفرح والضحكات.. وإنه كان عبقًا برائحة الفل والياسمين التي تصل من حديقته ومن السهل الفسيح الممتد حوله.. وأخبرها بأن القاع الصفصف أمام ذلك البيت كان يومًا ذلك السهل.. وأن الأشواك حوله كانت ذات مرة أشجار فل وياسمين وزعتر.

كانت عائلة السيد أحمد تسكن ذلك البيت وكانت في الليالي العجفاء تنعم بالدفء إلى جانب الموقد.. وذات ليلة ممطرة، سمع صغير العائلة سامي صوتًا غريبًا آتيًا من الحديقة.. كان وقتها في سريره

مستيقظًا بعد أن جافاه النوم وكان قد مر قرابة الساعة ونصف الساعة منذ أن غطته أمه بالبطانية وتمنت له أحلامًا سعيدة.. جافى النوم مقلتي سامي ولكن الأحلام استنكرت على النوم صنيعه فكانت تدور بصغيرنا في عالم الآمال، وتصور له صورًا جميلة أخاذة لم يكن ليقطعها لولا ذلك الصوت الغريب.. اقترب سامي من النافذة وأجال بصره في حديقة البيت لكنه لم يلاحظ شيئًا غريبًا.. عاد إلى سريره وتدثر ببطانيته وحاول العودة إلى النوم.. لكن الصوت ما فتئ أن عاد من جديد وكان هذه المرة أكثر وضوحًا.. قام سامي ثانية وتوجه إلى حيث تقبع النافذة.. كان الصوت جليًا هذه المرة.. نظر صغيرنا إلى أسفل النافذة فإذا به يرى كومة غريبة من الشعر الأبيض.. ولم يكن سامي من قبل قد رأى قطًا.. ببساطة لأن أبعد مكان كانت رجلاه قد وطئتاه هو حديقة بيتهم التي لم يحدث أن دخلها حيوان إذا استثنينا الحشرات من نحل وفراش كان صاحبنا يُحب أن يقضي الوقت في تأمل حركاتها.. مد يديه من النافذة وتحسس الجسم الغريب المكور أسفل نافذته.. وإذا برأس القط يستبين من كومة الشعر ناظرًا إلى سامي بعينين فاحصتين.. فزع صغيرنا إلى أبيه وأخبره عما كان من أمر كومة الشعر، فتوجه معه أبوه إلى الحديقة وأدخلوا المخلوق الصغير الغريب.. وسمع سامي لأول مرة بكلمة قط.. وكانت أول مرة له يرى حيوانًا في حجمه فكان من الطبيعي أن يُعجب به بل ويود مصادقته.. وهكذا قررت العائلة تحت إلحاح الطفل الصغير وتحت وطأة مشاعر الحنان تجاه القط أن تُبقيه عندها ليصبح رفيق الفتى الصغير.

كان القط ينمو بسرعة وفي كل يوم يزداد حب سامي له، وكذا تعلق العائلة بذاك الذي أصبح فردًا جديدًا منها فكانت الأم لا تبخل

عليه بلحم أو سمك، وكان الأب يشتري كُرات الصوت الملونة له ليلعب بها، وأما الصغيرة فاتن فكانت تحيك له ملابس جميلة من الصوف حتى يستمتع بالدفء في أيام البرد.. لكن ما رفضته الأم والأب رفضًا قاطعًا هو أن يبيت معهم في البيت بسبب خوفهم من الأمراض التي يمكن أن ينقلها نظرًا لكونه غير ملقَّح، وبسبب أن الأب كان يكره أن يتناثر وبرُ القط في كامل أرجاء البيت فيلصق بجواربه أو حذائه.. وما عدا ذلك فقد كان القط مبجلًا مكرَّمًا.. لكن الذي كان يعتمر بقلب القط – الذي سموه نوعام – لم يكن حتى سامي الصغير ليتصوره.

لم يكن نوعام مقطوعًا من شجرة كما كانت عائلة السيد أحمد تظن.. بل إنه كان شديد التعلق بأمه القطة نوعاه التي أنجبته، ثم إنه لم يكن قد دلف إلى الحديقة من محض الصدفة.. بل كانت تلك نصيحة قدمتها له أمه نوعاه وهي تعلمه أصول التسول وطرق الحصول على الرزق السهل السريع، وكانت تملك من الأبناء غيره ثلاثة قطط آخرين وهم عتارا وخارنا وإدنا الذين كانوا يمتهنون نفس عمل نوعام أي التسول من أجل الرزق.. وكان أب هؤلاء القطط الأربعة قد توفي بعد إنجاب أمهم لهم بحادث سير أودى بحياته أمام عيني نوعاه، فربت أولادها على فن الحياة من منظورها، وحرصت على أن تزرع فيهم بذرة الكره والحقد تجاه من يسمون أنفسهم بالبشر، وكان نوعام ذا شخصية مستبدة وأنانية مفرطة عُرف بها بين أقرنائه من القطط، إلا أنه لم يكن يملك من الكبرياء ذرة فكان لا يرى حرجًا في التزلُّف والكذب ليحصل على مبتغاه، وكان يذهب أبعد من ذلك فكان لا يعترف بفضل أحد عليه، ولا يمانع من أن يعض يد من أطعمه إذا كان قد وجد أنه لم يعد ذا فائدة تذكر له.

أما عتارا فقد عرف بتوقه إلى الكسل وحب التملك، ولذا فما أن وجد عائلة ترعاه حتى مكث معها يعيش عيشة الملوك في القصور لكن حظه لم يكن مختلفًا عن حظ أخيه؛ إذ لم يكن قد حظِي بعائلة تقبل بعيشه معهم داخل البيت فكان كل ليلة يعود أدراجه إلى وكر أمه لينام إلى جانبها وجانب إخوته كيفما اتفق وأينما اتفق.

على خلاف عتارا كانت خارنًا لا تحب الاعتماد على التسول في المنازل بل تكتفي بما يحضره عتارا إليها من أصحاب المنزل الذي يقطنه، بينما كانت هي تقوم بحبك الخطط لباقي إخواتها حتى يتمكنوا من التأثير في أناس مختلفين بطرق مختلفة، وكانت في خطتها تعتمد على ما تحضره لها أختها إدنا من معلومات حول مختلف المنازل المحيطة، ومختلف الناس الذين يقطنونها إضافة إلى أسماء وأصول باقي القطط بتلك المدينة، وكيف يمكن التأثير فيهم، ولا يخفى طبعًا على أحد أن صاحبتنا خارنا قد ورثت موهبة التخطيط الاستراتيجي من أمها نوعاه التي حرصت على تعليمها مختلف الخطط الخبيثة التي تعلمتها منذ صغرها من أبويها وزوجها.

وأما القطة نوعاه أم عصابة نوعام فقد كانت تمكث إلى جانب ابنتها خارنا في البيت لحبك الخطط، لكن ذلك لم يكن عملها الوحيد إذ كانت إلى جانب ذلك تلتقي بين الحين والآخر بجملة من رفقائها القدامى وتقضي معهم الساعات الطوال في حديث لم يكن قط ليفهم كنهه، وحدها خارنا كانت تعلم علم اليقين ما تدبره أمها؛ كيف لا وقد تعلمت على أيديها فن التخطيط الاستراتيجي.

فيما يخص رابع الإخوة إدنا فقد كانت صاحبتنا هذه تعتمد من أجل إنجاز مهمتها والحصول على قوتها على جمالها الأخاذ؛ لتغري

القطط ولتكون معهم صداقات مختلفة تعتمد عليها لتحصل على المعلومات المطلوبة، فكانت أعرف القطط بتلك المنطقة واشتهرت بعلاقاتها المتعددة ومعلوماتها الغزيرة عن الجميع.

وبالمختصر فقد كان الإخوة الأربعة يكونون فريق عمل هدفه الظاهر الحصول على رزق وقوت اليوم؛ بينما كان هدفهم الحقيقي يتبلور مع الأيام ليصبح أكثر وضوحا في أعينهم، ومع اشتداد عودهم يومًا بعد يوم كانت شراستهم بالمثل تزداد وحقدهم على عالم البشر يتضخم.

أما صديقنا الصغير سامي فلم يكن يعلم عن مخططات نوعام قطه الصغير شيئًا.. بل إن أحدًا من عائلة السيد أحمد لم يكن ليتصور من جماعة من القطط أن يحملوا في قلوبهم كل تلك الضغينة والأحقاد، وهم الذين كانوا يحسنون دومًا لنوعام بشكل خاص ولكل القطط بشكل عام.

سنتان.. سنتان منذ أن أصبح نوعام فردًا من أفراد عائلة السيد أحمد.. سنتان قضاهما سامى في تربيته والإحسان إليه وكان ينتظر فرصة ملائمة ليُقنع أباه فيها بقبول إدخال القط إلى المنزل.. ثم إن العائلة لم تكتف بنوعام كحيوان أليف بل إنها ربت إلى جانبه كلبًا أسموه «برين» وكان سامي يحبه كما يحب نوعام.. وحده أب العائلة لم يستسغ فكرة تربية كلب وقط لخوفه من شجارهما الدائم... لكنّ توقعاته لم تكن في محلها؛ نظرًا إلى أن برين كان صديقًا حميمًا لنوعام وإن لم يبد عليهما ذلك.

كانت نهاية تلك السنتين مشهودة، بقيَ كل قط في المدينة يذكرها وكل شخص من أهلها يتحسر على الماضي من قبلها.. كان

ذلك في عام خمسة وأربعين وتسعمائة وألف، عندما قرر نوعام البدء بتنفيذ الخطة التي قد ضبطها مع أخته خارنا وأمه نوعاه.. انطلق الإخوة الأربعة في المدينة يوزعون إعلانًا على باقي القطط في جميع الأمصار والأصقاع.. إعلان شفاهي غير مكتوب بحبر قلم، ولكنه مطبوع بدم الحقد والضغينة على قلوب ذلك الشعب المكلوم.. وكان الإعلان يطالب باجتماع كل القطط في أحد المقرات؛ ليناقشوا مصير شعبهم، والخطط التي عليهم أن يتبعوها وينقذوها.

ولعلك يا بُنيتي تتساءلين عن هذا المقر.. فمن أين لجماعة من القطط المشردة أن يمتلكوا مقرًا يمكن لهم أن يجتمعوا فيه؟ بل إن هذه القطط لو امتلكت هكذا مكانًا تجتمع فيه وتنام فيه لما حصل وأضمرت في نفسها ما أضمرت، ولا أقدمت على ما فعلت.. فهل تشرُّدُهم ذنب البشر كما يُشاع بين كل القطط في جميع أصقاع العالم؟

تنهد جد جميلة هُنيهة، والتفت إلى حفيدته وهو يلحظ حماسها إلى القادم من الأحداث.. كان الجد يعرف ببداهة أن عقلها الصغير كان معبئًا بالأسئلة. ماذا حدث في ذلك الاجتماع الغريب؟ وإلى ما أدى؟ هل علم به سامي؟ ولِمَ أقيم من أصله؟ وما بالُ نوعام يحمل الأضغان وقد كُتب له عمر جميل إلى جانب صديق وفيّ كسامي؟ وكيف انتهى الأمر ببيت العم أحمد إلى أن يصبح مهجورًا؟ ببساطة ماذا حدث؟ لكنّ الجد أبى أن يُجيب حفيدته على تلك الأسئلة في تلك اللحظة، فقد ارتأى أنه من الأولى أن يُحدثها عن تاريخ القطط أولًا.. قال لها بنفس الصوت الحنون:

عليك أولًا يا صغيرتي أن تعي أنه لا يمكن لأحد الحكم على موقف ما لم يدرسه من جميع جوانبه، والتاريخ يا بنية جزء لا يتجزأ من

الحقيقة، فإن كنت تتساءلين عن الدافع الذي كان يملأ نوعام وغيره من القطط لفعل ما فعلوا، فينبغي عليك أن تعلمي تاريخ هذه الحيوانات مع الإنسان أولًا. ففي هذه المدينة يا بنية اعتادت القطط على أن تعيش في بيوت الناس آمنة، كان هناك على الأقل قط أو اثنان في كل بيت، وكان الجميع معتادين عليهم؛ لكن المشكل كان تصرفاتهم غير المسؤولة، فهم إن أرادوا شيئًا من الأكل حتى فوق الشبع سرقوه، وإن كان أصحاب البيت الذي يقطنونه قد أفلسوا أو كانوا يعانون ضائقة مالية فإنهم كانوا لا يتوانون عن تركهم؛ معبرين بذلك عن قلة وفائهم، وعلى الرغم من أن الناس كانوا يضيقون ذرعًا بتصرفاتهم إلا أنهم لم يخطر لهم مرة رميهم في الشوارع؛ بل كانوا ألطف من أن يفعلوا ذلك بمخلوقات ضعيفة مثلهم.

وجاء التاسع من نوفمبر من عام ثمانية وثلاثين وتسعمائة وألف عندما دخلت المدينة مجموعة من الكلاب السائبة؛ التي كانت تنتقل بحثًا عن رزقها وقوتها، ففي ذلك الوقت يا بنية لم يكن هناك جمعيات تُعنَى بالحيوانات، ولم تُعْنَ الحكومات بتنظيم شيء من أمورهم؛ فكانوا كغجر تحركهم الرغبة في الجوع، فيسافرون مثل الغجر بحثًا عن موطن رزق، والكلاب كما هو معروف هي من ألد أعداء القطط، فكانت الهررة تفر خوفًا منها، وكانت الكلاب تستحوذ على كل المناطق التي تصل إليها، فتطرد القطط شر طردة، وتفعل بها الأفاعيل، في ذلك اليوم الذي أقبلت فيه جماعة الكلاب على المدينة حدثت معركة ضخمة بينها وبين القطط حتى أن الناس أغلقوا نوافذ بيوتهم وأوصدوا أبوابها خوفًا من عدوان هذه الحيوانات، وبسبب ذلك وقعت القطط في مشكلة ضخمة؛ فكل قط كان لا يزال خارج حدود البيت

الذي يأويه تم سحقه وقتله على يد الكلاب الشرسة، البعض فقط نجا بأن غادر المدينة مهاجرًا إلى أبعد مكان ممكن، والباقون كانوا من أولئك الذين لزموا بيوتهم.. الجدير بالذكر هو أن الغالبية العظمى من القطط كانت قد دلفت إلى منازلها قبل أن يحدث ذلك العدوان، وبالتالي فإن الذين قتلوا في تلك المعركة لم يكونوا أكثر من شرذمة قليلة، لكن الأفواه طبعًا تُضخم الأحداث عند نقلها حتى بات الأمر كما لو أن شعبًا كاملًا من القطط قد أُبيد على أيدي أولئك الكلاب.. لم تكن العلاقة بين الكلاب والقطط علاقة مودة قطعًا، لكن الكلاب لم تكن كلها معادية للقطط، فكان البعض منها يؤمن لها طريق العبور حتى لا تقع في قبضة الشرسين منهم، وهؤلاء هم نفس أصحابنا من أولئك الذين كانوا في عون نوعام وإخوته لتأمين مكان يلتقون فيه بباقي القطط، فظاهر العلاقة بين هذين الصنفين من الحيوانات أنهم كانوا على عداء دائم، أما واقع المعاملات فيفرض على الواحد أن يتعجب ويتساءل عن ماهية هذه العلاقة الغريبة التي يسودها كثير من الغموض.

ثم إنه وبعد توزيع المنشورات على كل قطط المدينة تم تنظيم اجتماع ضخم بذات الليلة، لكن الحضور لم يكونوا فقط من الهررة بل حضره أيضًا عدة كلاب من كلاب المدينة المعروفين؛ الذين يُمثلون آراء بقية الكلاب، وانطلق ذاك الاجتماع الغريب الذي كان يجري في كواليس العتمة بعيدًا عن أنظار السكان:

«يا شعب القطط العظيم. لقد حانت اللحظة التي انتظرها آباؤنا منذ سنين.. حان اليوم الذي ننتقم فيه لمظالمنا ولإخواننا.. كل واحد فينا فقدَ أبًا أو أمًا بسبب إهمال أولئك الذين يدعون أنفسهم بشرًا..

كل واحد فينا فقدَ حبيبًا في تلك المعركة المؤسفة منذ سنوات، والتي أغلقوا فيها أبوابهم في وجوه آبائنا؛ لذا فقد حان الوقت لأن نغلق نحن أيضًا أبوابنا في وجوههم ونُشرد أهلهم كما شردوا أهالينا.. حان الوقت الذي ننتقم فيه لخيباتنا.. إنه الموعد المنتظر الذي يكون لنا فيه حق امتلاك موطن وبيت يُؤوينا.. أيتها القطط لنتحد، ولنقرر بدأ خططنا التي حلمنا بها من سنين خلت..».

كان ذلك خطاب نوعام أمام عشرات القطط التي كانت تتوق بحماس لذلك اليوم الموعود، ثم ترك نوعام المكان لواحد من الكلاب الحاضرة والذي كان يقطن بيتًا بعيدًا كل البعد عن بيت السيد أحمد ويُدعى «بيل».. توجه بيل إلى الجمع بصوت متهدج قائلًا:

«ليس لدي أكثر من بضع كلمات.. باسم كل كلاب المدينة أُعلن أننا متعاطفون مع قضيتكم ومع مشاكلكم، فإن كل جمع له الحق في وطن وأرض، وكما نملك نحن معشر الكلاب أماكن من هذا النوع تؤوينا، ونملك إلى ذلك عدة بيوت سيطرنا عليها في هذه المدينة منذ القدم، فإن لشعب القطط الماثل أمامي الحق أيضًا في هذا الأمان، لذا فإننا نحن الكلاب سنكون في عونكم، ونمد لكم يد المساعدة حتى تمتلكوا أسباب النصر على أعدائكم وتنتزعوا حقوقكم».

نظرت جميلة باستفسار إلى جدها وسألته:

«ولكن يا أبي عن أي حق يتحدثون؟ هل يعني بيل أنه سيتنازل عن بعض الأماكن المخصصة للكلاب لصالح القطط؟ ومن متى أصبحت الكلاب صديقة للقطط؟ أليست هي من تسببت بقتل كثير منهم في تلك المعركة؟ فكيف يتحالفون الآن معهم؟».

أجابها جدها بصوت متقطع يملؤه الحزن:

«أي بنية.. في هذا العالم البقاء للأقوى.. أي بنية، في هذا العالم المصالح تحكم.. أي بنيتي، إن الذي لا يعترف بفضل من ساعده وأحسن إليه لا يمكن له إلا أن يتبع مصالحه، وكذا هو نوعام وباقي عشيرته.. ليس هدفهم الانتقام في حد ذاته، فلو صح ذلك لرأيتهم أشد عداوة وبغضًا للكلاب، لكن ذلك ليس هدفهم بقدر ما كان حلمهم إقامة مكان خاص بهم ولو على حساب الأبرياء وحقوق المساكين.. نوعام قط شرس، شرب الضغينة من ضرع أمه وتربى على الحقد على صغر سنه.. لذا ما دامت الكلاب وعلى رأسهم بيل سيساعدونهم فلا ضير في القبول بمساعدتهم، ولبيل وعشيرته يا بنيتي أهدافهم أيضًا.. فكل واحد فيهم يسعى وراء تحقيق مطامعه.. فأما الكلاب فلم يكن البتة من صالحهم أن تنافسهم القطط على الأماكن التي استولوا بالفعل عليها.. ناهيك عن أن واقع وجود تهديد على البشر من طرف القطط يستلزم أن يربي الناس مزيدًا من الكلاب، بل إنهم قد يتخلون عن تربية القطط ويتخذون عوضًا عنها الكلب رفيقًا وحيوانًا أليفًا.. وبذلك يكون مخطط القطط قد خدم مصالحهم هم أيضًا».

استطرد الجد بعد هنيهة:

«بعد خطاب نوعام وبيل وعدة خطابات تَلَتْهُم ناقشت القطط الخطة التي كان خارنا ونوعاه قد وضعتاها بالاعتماد على المعلومات التي جمعتها إدنا.. واقع الأمر كان أن الخطة كانت على قيد التنفيذ بالفعل، فما حصل هو أن إدنا لم تكن تسعى عبثًا إلى تكوين علاقات وصداقات وثيقة مع مختلف قطط المدينة، بل إنها كانت بذلك توجه

مختلف القطط التي لم تجد بعد من يرعاها إلى المنازل التي لم تتخذ بعد قطًا إلى أن تأكدت إلى أنها قد زرعت بكل منزل سرطانًا وبكل بيت جاسوسًا.. وبفضل ذلك فقد كان جمع المعلومات عن قاطني تلك البيوت أمرًا سهلًا عليها، معلومات جعلتها تعرف كيف يمكن التأثير عليهم من نوعية الخرافات التي تثير فيهم الرعب والخوف إلى أكثر ما يمكنه تفريق تشمل الأسرة الواحدة.

تفرق الجمع في تلك الليلة المشهودة بعد أن تم تحديد كبرى الأهداف، وكانت أول نقطة في تلك الأهداف البدء بإخراج إحدى الأسر من بيوتها حتى يكون ذلك البيت المقر الأول والبداية الأولى للانطلاق في هدفهم الأكبر من أجل إخضاع كل المدينة تحت سيطرتهم.

وبدأ نوعام في تنفيذ الخطة المتفق عليها بعد أن وقع الاختيار في الاجتماع على بيت السيد أحمد كانطلاقة لحلم شعب القطط. بدأ صاحبنا باختلاق المشاكل مع الكلب برين، فكان بين الفينة والأخرى يسرق من طعامه أو يجبر سامي على إبعاده عندما يكون معه، وشيئًا فشيئًا بدأ برين يظهر ضيقه وانزعاجه من تصرفات نوعام، فكانا يتشاجران على الدوام، وكان هدف نوعام الأساسي إجبار برين على الخروج من البيت ليكون مقرًا له ولجماعته بامتياز فكان له ما أراد، ففي صبيحة الرابع عشر من شهر ماي من عام ثمانية وأربعين وتسعمائة وألف كان نوعام قد جمع كل القطط المشردة التي لم تلق بعد من يعتنى بها ويربيها في المكان الموعود، ودلفوا خلسة إلى بيت السيد أحمد.

كانت الأم يومها قد حضرت فطورًا من السمك المشوي، وكان الأب في قمة الإرهاق بحيث لم يكن منتبهًا على ما يجري من أحداث

في المنزل، أما فاتن الصغيرة فكانت تلعب بدمية لها وتحيط في الوقت ذاته شبه قميص قررت أن تجعل نوعام الصغير يلبسه نظرًا إلى أن الجو كان لا يزال باردًا في الليل، دلف سامي إلى المطبخ بدون أن تلاحظ أمه، وسرق من الصحن أكبر سمكة من السمكات المشويات وخبأها تحت ملابسه لألا يراه أحد وهو يخرج بها، توجه الصغير إلى نافذة حجرته حيث كان قد التقى وجهًا لوجه مع نوعام لأول مرة، وكان أسفل نافذته عبارة عن مكن سري يجتمع فيه سامي بقطه كل يوم ليعطيه بعضًا من الطعام الذي لم تكن الأم لتجد ما يكفي العائلة منه، ناهيك عن إعطاء الحيوانات نصيبًا، فكان صاحبنا يسرق ما أمكن له سرقته آملًا ألا تنتبه أمه إلى أفعاله حتى يطعم قطه الصغير المحبوب، وكم فاجأته أمه أكثر من مرة وأنبته على فعله قائلة بأنها تطعم القط ما يكفيه ويكفي عشرة من أمثاله، وأنه ليس عليه أن يقوم بهذا الفعل المشين في حق طعام الأسرة، لكن قلب سامي الحنون لم يطع أمه يومًا إذ كان يرى أن أمه لا تقدم للقط إلا البقايا بينما كان يؤثره هو بأجود ما تأكل العائلة، فكان دائم العصيان لها.. توجه صاحبنا إلى النافذة والسمكة بيده ونادى نوعام للأكل، ولكن ما فوجئ به صغيرنا أن نوعام لم يكن يومها وحيدًا بل إنه كان برفقة أربعة قطط آخرين.. فكر سامي بأن تلك القطط أيضًا كانت تعاني الجوع فقسم السمكة على خمس قطع ووضعها على مقربة من النافذة.

فأما نوعام فقد كانت تلك أسنح فرصة له للبدء بخطته، وأما القطط الأربعة فلم يكونوا غير إخوته وأمه وقد دخلوا معه الحديقة ليدرسوا الوضع عن كثب، وأما سامي الصغير البريء فقد عاد أدراجه إلى المطبخ ليحضر مزيدًا من الطعام مقتنعًا ببراءته أنهم أصدقاء نوعام وبالتالي ضيوفه وإكرام الضيف واجب.

لم يهتم نوعام بالسمكة المقطعة أسفل النافذة وقفز إلى داخل حجرة صاحبنا الصغير واختبأ تحت لحاف سريره، أما أدنا فذهبت تستدعي كل معارفها من القطط ليأتوا إلى حيث بيت السيد أحمد، وأما خارنا فقد توجهت إلى حيث تقبع غرفة فاتن الصغيرة وبقيت تراقبها من نافذة غرفتها الصغيرة المفتوحة، وأما نوعاه فقد بقيت تراقب الأم وسمكاتها من حيث يمكنها الدخول إلى المطبخ بسهولة، وأما عتارا فقد أخذ يراقب الأب المنهك النائم بغرفة نومه من حيث لا يراه.

ما أن عاد سامي ببعض ما استطاع حمله من المطبخ دون انتباه أمه حتى أخذ في البحث عن القطط الخمسة، أخذ الصغير يبحث ويبحث طويلًا دون أن يعثر بعينيه على أثر لهم فاستغرب الأمر وهمّ بالخروج من الغرفة؛ في تلك اللحظة سُمِع صوت حاد تعالى بالحديقة كاد أن يصم آذان قاطني البيت هم منه السيد أحمد فزعًا متسائلًا عن مصدره، وإذا بالدنيا تظلم في عينيه فجأة حيث قفز عتارا من نافذة حجرة النوم ليرسو ببطنه المكور على وجه السيد أحمد الذي لم يفهم ما حل.

أما الأم فراعها في نفس اللحظة التي سمعت فيها ذاك الصوت أن ترى أطباقًا تكسر في المطبخ دون أن يسقطها أحد، وكانت نوعاه تجري كالمجنونة في وسط المطبخ فتلقي كل ما يعترض طريقها أرضًا فتسببت في ضجة كبيرة.

فاتن الصغيرة كانت تحيك القميص وتداعب دميتها في اللحظة التي سمعت فيها ذلك الصوت الغريب تلاه صوت مواء غريب من حيث نافذتها، أما صاحبنا سامي فقد كان يهم بالخروج من الغرفة عندما رأى لحاف سريره يتحرك وحده ويرتفع شيئًا فشيئًا كما لو أن مسًا من الجن قد أصابه.

لم تكن هذه الأفعال مبنية على فراغ، فقد كانت نوعام طوال فترة إقامته مع عائلة السيد أحمد يجمع المعلومات المختلفة حول أفراد الأسرة، فكان يعلم أن لا شيء يمكن أن يزعج السيد أحمد أكثر من تواجد حيوان ما في غرفة نومه، والإحساس بوبر قط على جسده فكان قفز عتارا على وجه صاحبنا محسوبًا وذا هدف واضح، أما الأم فإن إفزاعها وإخراجها عن طورها كان أسهل ما يكون على نوعاه فعلى نظام المطبخ وجودة الأكل كان فلك حياة الأم يدور؛ لذا فإن بعثرة الأشياء وكسر الصحون كانت أكثر من كافية لإفقادها صوابها، أما فاتن فإنها على حبها لبرين ونوعام كانت تخاف الأصوات التي كانت تخرج من أفواههم، فكانت ترتعب لمواء نوعام ولنباح برين ولذلك كان مواء خارنا، ولم يبق غير صديقنا سامي الصغير الذي كان أمام عيني نوعام كتابًا مفتوحًا يقرأ فيه، فكان على علم بمخاوف الفتى الصغير وأن أكثر ما كان يثير في نفسه الخوف هو الأشباح فأحسن القط تقليد شبح ملاءة السرير الذي كان أكثر من كاف لإفزاع سامي.

وانطلقت الصرخات متوالية، وامتلأ البيت بضجيج قاطنيه تلته أصوات الحيوانات الغاضبة الثائرة، فبعد أن أدخلت عائلة نوعاه الرعب في قلوب ساكني البيت حتى دخلت جماعات كثيرة من قطط الشارع إلى داخل المنزل كانت منتظرة لإشارة الصراخ، كان البعض ممن دخلوا قد وضعوا أغطية بيضاء على أجسادهم سرقوها من منازل أخرى، وكانت مهمة هذا الفريق السيطرة على غرفة سامي فكان لهم ما أرادوا؛ حيث انطلق الصغير بأسرع ما يمكن لرجليه الجري خارجًا من غرفته إلى غرفة الجلوس، أما بقية القطط فمنهم من هجم على غرفة نوم الأب وكانوا من أكثر الجمع وسخًا، ومنهم من انطلق إلى حيث

المطبخ ليكسروا ما شاء لهم، فعاثوا فسادًا في المكان وحطموه حتى أن الأم فقدت السيطرة على أعصابها، وأخذت في صراخ حاد بلغ مسامع كل أهل الحي، ومن القطط من توجه إلى غرفة الصغيرة فاتن، فمزقوا ما وجدوه من الأقمشة وغرسوا مخالبهم بالدمى وأتلفوا اللعب.

كانت بضعة لحظات خيل لأفراد العائلة أنها أيام، بضعة لحظات من الجنون العارم غمرهم، فأخذوا في صراخ متواصل وبكاء غير منقطع، توجهوا جميعهم إلى غرفة الجلوس، حيث أحاطت بهم القطط من كل جانب وحاصرتهم من كل ناحية.

تقدم برين إلى حيث الحلقة التي قبعت عائلة السيد أحمد بها، وأعلن للقطط أنه قد تخلى عن حقه في البيت وأنه يعترف لهم بحق الملكية وحق البقاء.. تقدم نوعام إلى حيث برين وخطب في الجمع:

«اليوم يا رفاقي وإخوتي نأخذ بثأرنا ونؤكد وجودنا، اليوم أيها الشعب العظيم، اختارتنا الأقدار لنمسك بزمام الأمور في هذا العالم بعد أن تحكم غير المستحقين به طويلًا، اليوم نسترجع ما ملكنا منذ الأزل وما استحققناه منذ القدم، ولا يملك أحد أن يقول أن له علينا عرفانًا أو إحسانًا بعد أن انتزعنا حقوقنا بأيدينا، أيها القطط اسمعوا وعوا، من كان منكم على مبدئنا ومنهجنا ومؤمنًا بحقنا الطبيعي في امتلاك بيت يؤوينا، فإن الوقت قد آن لنا ومن كان متعاطفًا مع هؤلاء الذين نفوقهم أحقية فليغرب عنا، إنا نعلن اليوم بداية عهد جديد وتاريخ عظيم، اليوم على الساعة الرابعة من بعد الظهر من هذا اليوم المبارك علينا، نعلن أن هذا البيت أصبح ملكنا...».

ولعلك يا بنيتي جميلة تتساءلين عن موقف أفراد عائلة السيد أحمد من هذا الخطاب، وأقول لك لأجيبك أنهم كانوا ببساطة في

حال من الصدمة، ناهيك عن أنهم لم يكونوا يستوعبون لغة القطط والحيوانات بشكل عام؛ لذا فقد وقفوا مبهوتين مندهشين مصدومين لما تراه أعينهم من غرائب الدنيا، ولكنها كانت الحقيقة ماثلة ببشاعتها أمام أعينهم وقبل أن يعوا ذلك وجدوا أنفسهم يهرعون خارجين من بيتهم متوجهين إلى الجيران طالبين المأوى، معظم الجيران كانوا قد قبلوا إبقاءهم عندهم، لكن أحدًا منهم لم يمتلك ذرة شجاعة واحدة تدفعه إلى اقتحام البيت واسترجاع ما سرق بغير حق، كان السيد أحمد يدور من بيت إلى بيت وهو يطلب عون هذا ويسأل المساعدة من ذاك، وكذا راحت الأم إلى صديقاتها الواحدة تلو الأخرى طالبة النجدة.

تنهد الجد من الأعماق وأضاف على كلامه ما انقبض له قلب جميلة الصغيرة:

لم يكن البيت يا بنيتي هو الشيء الوحيد الذي خسره السيد أحمد وزوجته في تلك الأحداث الأسيفة، بل إنهما قد فقدا إلى جانب البيت طفليهما، أي نعم، فإن هجوم القطط على العائلة جعل الأب والأم يفران خارجًا ظانين أن ابنيهما قد لحقا بهما لكن الواقع لم يكن كذلك، فما حصل أن كلًا من سامي وفاتن حوصرا في المنزل من قبل القطط، أو هكذا ظنت القطط في البداية لكن واقع الأمر أن سامي كان قد انتبه رغم صغر سنه وقلة تجربته إلى أنه إن ترك المنزل في هذه اللحظة فلن يعود إليه ثانية لا محالة، كما أدركت فاتن الصغيرة إلى أنهم لو فروا إلى الخارج فإن العداء لن يتوقف عند ذلك الحد، بل إنه سيمتد ليصل باقي الجيران، خاف كل من سامي وفاتن على أصدقائهما بالحي، وخافا على أبويهما وخافا على نفسيهما، لكنهما كانا مصرين

بقدر ما كانا خائفين وأكثر على البقاء تحديًا، كانت فاتن ترغب بإنقاذ ما يمكنها إنقاذه من لعبها وعرائسها، بينما كان سامي راغبًا بإنقاذ قطه الحبيب نوعام ظانًا منه ببراءته أن نوعام كان ضحية مثله، وأنه سيكون في عونه لطرد تلك القطط.

في ذلك الموقف تقدم نوعام إلى حيث وقف سامي وفاتن وكانت لحظات قبل أن يقفز القط على وجه سامي وينشب فيه مخالبه، فزعت فاتن وصرخت بكل ما أوتيت حبالها الصوتية من قوة، أما سامي فقد أبعد القط عن وجهه بعنف وفهم في ذات اللحظة أن ما عليه أن يسعى لاسترجاعه كان بيته وعائلته وذكرياته لا صداقته مع ذلك القط الخائن، انحدرت الدموع على عيني صديقنا الصغير لدى إدراكه لانتهاء تلك العلاقة بينه وبين قطه المحبوب، ولكنه صرخ فيه من خلال دموعه:

«أنت خائن وجبان، ولا تصلح صديقًا لغير نفسك، وأنا لست ضعيفًا حتى يغلبني جبان مثلك».

اندفع سامي نحو جميع القطط وقد أمسك بعصا بيسبول موجودة بخزانة الغرفة كان أبوه يستعملها في صباه وانبرى يضرب القطط التي كان تتساقط متألمة من أثر ضرباته، فأمر نوعام القطط بالانسحاب وقد أدرك أن الغضب كان قد استمد بالطفل الصغير الذي لم يكن قد رآه من قبل في حالة مشابهة، انسحبت القطط إلى الطابق العلوي لفترة وقاموا بإعادة تنظيم صفوفهم وكان نوعام يجول بين القطط ويوصيهم باتباع الخطة وعدم الخوف من ردة الفعل المفاجئة للأطفال، فما هم إلا أطفال في نهاية الأمر، أما خارنا فقد كان دورها قد حان لتبدي قدراتها

مع أمها نوعاه، أما سامي فما كانت تلك اللحظة إلا لحظة عابرة من الغضب الحانق والثورة المتأججة سرعان ما انطفأ لهيبها ولو إلى حين، وأما فاتن فقد راحت في بكاء مرير شاركها فيه سامي بعد برهة وتعانق الاثنان واعدين نفسيهما بالجلد والصبر وأنها محنة ستنقضي أو أنه كابوس عابر.

لم ينتبه الطفلان على أن خارنا وأمها كانتا تطلان عليهما لتتأكدا من مدى عزيمتهما وشجاعتهما لخوض القتال، ولم يخفَ ذلك الخوف في عيني الطفلين عن القطتين الداهيتين التي عادتا على وجه السرعة لتبشرا جمع القطط بذلك، واستقر رأي القطط على العودة إلى الخطة الأصلية باعتماد نقاط ضعف الطفلين لإخافتهما وإجبارهما على الخروج قسرًا من البيت.

وأعادت القطط الأغطية على ظهورها ونزلت مغيرة على الطابق الثاني من جديد حيث الطفلين قابعين، فأما فاتن فما إن رأت الأشباح البيضاء حتى أسرعت مغادرة من البيت من نافذة غرفة الجلوس أتبعها سامي وهو في أشد حالته ذعرًا، لكنه ما لبث أن توقف عن الجري وانحنى على الأرض المعشوشبة وتناول من الحصى ما تمكن من حمله ووقف وجهًا لوجه قبالة القطط المتنكرة والخوف والشجاعة يتنافسان أيهما يحل بقلبه ويغشاه، وكان الفوز من نصيب الشجاعة التي ملأت عيني سامي وراحت تمده بالحماس لرمي ما جمع من الحصى تجاه أكبر مخاوفه، ثم إن الحماس كان كالعدوى سريعة الانتقال حيث توقفت فاتن أيضًا عن البكاء، وراحت تقلد أخاها رامية العدو بالحجر، أما القطط فإن بعضها هوى أمام بضع من الضربات واضطرت القطط

للانسحاب تاركة الطفلين وقد عادا إلى غرفة الجلوس من جديد والعرق يتصبب من جبينيهما.. كانا عاجزين عن الخروج خوفًا من أن يسلب منهما بيتهما وذكرياتهما، وكانا أبواهما يسعيان بجهد جهيد لإيجاد المساعدة من بقية سكان الحي.. لكن خبر الاستيلاء على بيت السيد أحمد كان بالفعل قد انتشر، وبدأت الشائعات والأقاويل بالانتشار بالمثل، وكأي خبر تنقله الأفواه فتحرفه وتضخمه فكذلك كان مصير الخبر حول فعلة القطط، وصارت عائلة السيد أحمد مضغة لأفواه بعض من اتهموهم بالجبن للتخلي عن منزلهم، بينما كان فريق من الناس يقرون بأن الأمر كان خارجًا عن سيطرة العائلة، وأنه كان يمكن أن يكون مصير أي عائلة أخرى، وأخذ الناس يتناقلون الأخبار حول جماعة القطط وما فعلته، وحول مقاومة فاتن وسامي اللذان بقيا صامدين حتى ذلك الوقت بالبيت، وحول ما يمكن فعله لمساعدة جارهم أحمد وزوجته لاسترجاع حقيهما، أقيمت ندوات بين الكثيرين وأصبح الموضوع مصدر إلهام كثير من شعراء الحي ورساميه؛ لكن أحدًا من أولئك لم يفكر يومًا في الانتقال إلى الفعل وإلى التحدي الحقيقي، بل إن أغلب أولئك الذين كانت أصواتهم تعلو على المسارح وفي الندوات كانوا يربون ببيوتهم قططًا كثيرة وكانوا لا يتوانون عن تدليلها، بعضهم من منظور أن هذه لا علاقة لها بتلك التي استولت على بيت السيد أحمد.. البعض الآخر قام بذلك من باب أن البقاء للأقوى ظانين أنهم بفعلهم يحمون بيوتهم من أن يصلها العدوان، وقد نسوا أو تناسوا حجم الإحسان الذي كان يلقاه نوعام الخسيس من طرف عائلة السيد أحمد.. ذلك الإحسان الذي لم يمنع القطط من أن ينقلبوا على من لهم يد العون في الليالي السوداء الحالكة».

تنهد جد جميلة وجلس صامتًا وقد انتهى من سرد قصة البيت لحفيدته أو هكذا ظن.. حيث إن جميلة لم تكن قد اكتفت بمعرفة التاريخ البعيد بل إنها كانت تواقة لمعرفة حاضر الأمور فسألت جدها مستفسرة:

«وماذا يا جدي عن أيامنا هذه؟ هل ما زال سامي وفاتن على قيد الحياة؟ هل تراهما ما زالا يقاومان وحدهما إلى الآن؟ وأنت يا جدي في ذلك الوقت ماذا فعلت لأجلهما؟».

نظر إليها جدها مليًا وقال لها:

«سامي وفاتن يعيشان إلى الآن في البيت المهجور في غرفة الجلوس تلك.. يصلهما أحيانًا بعض الطعام من بعض أصدقاء الطفولة السعيدة، وفي بعض الأحيان الأخرى يخرج سامي لجلب ما يحتاجه وأخته دون أن تفطن لهم القطط، ويخبر الناس بمستجدات الأمور.. كثيرون حاولوا الدخول إلى البيت لاستشكافه، وكثيرون نجحوا لكن الدخول وحده لا يكفي لاسترجاع البيت، فالأمر في حاجة إلى أن تتكاتف جهود أهل المدينة كلها الأمر الذي أصبح شبه مستحيل بعد أن وضعت القطط يدها على أغلب عائلات الحي وجعلتها خاضعة لها بطريقة أو بأخرى.

«بأي طريقة أصبح البشر خاضعين للقطط ونحن نفوقهم عددًا وضخامة».

«ما قيمة العدد يا بنيتي إن كانت همة النفوس مثبطة بالخرافات والأوهام، حتى أن الناس يعتقدون جازمين أن شعب القطط هذا لا يهزم لقوة مخططاته واستراتيجياته، ثم ما قيمة ضخامة الجثة إذا كان

الحماس معزولًا عن العقول، فالكل يا بنيتي يفكر بنفسه والكل لا يهمه إلا الحفاظ على بيته سالمًا من عدوان القطط حتى أن شأن عائلة السيد أحمد بات يخصها وحدها».

«كيف يخصها وحدها وهم جيراننا وقد أوصى رسولنا عليه الصلاة والسلام بالجار والإحسان إليه».

«كلامك ذو حدين يا بنية، أصبح الناس يعتبرون القطط جيرانًا لنا، وهم يعتمدون في كلامهم على حقوق كل الكائنات الحية، وبالتالي يقولون إن للقطط الحق في المأوى كما لنا نحن البشر ذلك الحق».

«لكن يا جدي كيف يكون لهم الحق وهم استولوا على ما لا حق لهم فيه؟».

«قلت لك من البداية، إنها ثقافة القوي تلك التي تغلب دومًا، ولكن الأمر على كل لا يخفى على أحد، فالكل بلسانه يندد بما فعله القطط، لكن المشكل في العزيمة أولًا، والصدق ثانيًا، وامتلاك أسباب النصر ضروري لذلك؛ لكن الأنانية التي تطغى على العقول تجعل من الأمر شبه مستحيل».

نظرت جميلة مليًا إلى جدها وقالت له بصوت متقد حماس:

«فأما الحماس فلا ينقصني يا جدي، وأما الصدق فأنا كما ترى أتعاطف بالفعل مع سامي وفاتن، فكيف لي أن أقوم بمساعدة عائلة السيد أحمد؟».

كلمات جميلة كانت نافذة.. واضحة.. مختصرة.. بدا سؤالها كما لو أنها تقول لجدها لماذا لا نكون نحن من سيحدث التغيير يا جدي؟ لماذا نحن في انتظار الآخرين بينما الآخرون في انتظارنا،

وتمضي بنا الأيام هكذا دونما أن نكون قد أحدثنا فرقًا؟

ضحك الجد ضحكة خفيفة ووضع يديه على رأس الطفلة وقال:

«بنيتي.. جميل هذا التصميم وهذا الحماس في عينيك الصغيرتين لكنك ما زلت فتية.. عندما تكبرين سترين أنه مجرد حلم يا صغيرة.. حلم حلمته مثلك يومًا في طيات قلبي، وما زال يخامرني بين الحين والآخر لكنه يا ابنتي مستحيل التحقيق، ولن يكون ممكنًا حتى نقرر التفاوض مع القطط، ربما بالحوار سنكون قادرين على أن نجد حلولًا، الحوار هو الحل، والمشكل الوحيد هو أن لا أحد يفهم لغة القطط.. نحن في حاجة إلى تعلم لغتهم وعندما نفتح مجال الحوار معهم فنفهمهم ويفهموننا، ونتفق أخيرًا».

وخرج الجد من الغرفة تاركًا جميلة مع كثير من الأسئلة التي كانت تحيرها: لم قد يكون الحل هو التفاوض بينما نحن نملك الحق الكامل؟ لِمَ نسعى نحن إلى الصلح وقد اغتصب حقنا أمام أعيننا؟ أليست الكلاب من ظلمت القطط فلِمَ لمْ تعلن الحرب على الكلاب؟ ولِمَ لا يمكن للقطط أن تكون وفية وتتعايش في سلم مع البشر؟ فحتى ولو ظلمها بعض البشر، ما ذنب سامي الصغير الذي لم تجنِ يده إثمًا ولم يقم يومًا بالإساءة لنوعام؟

كانت جميلة جالسة أمام زجاج نافذتها تتذكر القصة التي سمعتها من جدها أمس عن ذلك البيت المهجور.. التفتت صديقتنا إلى حيث يقبع البيت وتنهدت من أعماقها، وهمت بأن تقوم من مجلسها لتساعد أمها في أعمال المطبخ ولكن خيالًا غريبًا كان قد استوقفها.. خيال بعيد يقبع خلف زجاج نافذة من نوافذ البيت المهجور.. خيال رجل عجوز،

وخيل إلى جميلة أنها رأت وجه ذلك الخيال يبتسم لها، وخيل لها أنه يرفع يده ملوحًا لها بالتحية، وعرفت ببداهة أنه كان خيال الطفل سامي الذي مرت عليه بالبيت سنوات طوال صار بعدها عجوزًا، لكنه رغم ذلك لم يفقد القدرة على الابتسام، وبقي الخيال يلوح للطفلة من بعيد ويبتسم.

كان الشتاء وقتها على مشارف الانتهاء والربيع على وشك القدوم؛ ليعلن نهاية أفول نجم الأشواك وشروق شمس الياسمين والفل والزعتر.

* * *